القرآن الكريم.. وقوانين الكون

هناك كثير من دواعى الإعجاز فى القرآن الكريم لا يتنبه إليها العقل إلا بعد أن يبحث ويعيش وينشط، هذا الإعجاز يظهر دقة التعبير فى القرآن الكريم، ثم يظهر بطريقة أكثر وضوحا فيما يحاول بعض المستشرقين أن يدعوه على القرآن من ادعاء بالتناقض.

ولقد تحدثت فى الفصول الماضية عن الإعجاز فى بلاغة القرآن الكريم، ثم تحدثت عن الإعجاز فيما يدعونه عن تناقض القرآن الكريم، والآن أنتقل إلى قضية يحاول البعض إثارتها.

حين فشلت قضية التناقض جاءوا بشىء أسموه تصادم القرآن الكريم وحقائق الكون وادعوا أن بعض آيات القرآن تتصادم مع الحقائق الكونية، وهذا افتراء، فلا يمكن أن يتصادم القرآن مع أية حقيقة كونية، لماذا؟

لأن القائل هو الخالق، ولا يمكن أن يكون هناك إنسان أعلم بقوانين الكون من خالقه ولكن الهدف من الطعن فى القرآن الكريم - ويجب أن نفطن لذلك - هو محاولة الإيهام بأن القائل بشر، وسنناقش فى هذا الفصل بعض ما يقال عن تصادم القرآن الكريم وحقائق الكون.

قبل أن نبدأ يجب أن نتنبه إلى أن القرآن الكريم له عطاء متجدد، وهذا العطاء المتجدد هو استمرار لمعنى إعجاز القرآن، ولو أفرغ القرآن عطاءه كله أو إعجازه كله فى عدد من السنوات، أو فى قرن من الزمان، لاستقبل القرون الأخرى من دون إعجاز أو عطاء، وبذلك يكون قد جمد، والقرآن لا يجمد أبدا، وإنما يعطى لكل جيل بقدر طاقته، ولكل فرد بقدر فهمه، ويعطى للجيل القادم شيئا جديدا لم يعطه للجيل الذى سبقه، وهكذا.

ولهذا ندرك كما ذكرت من قبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تنزل عليه القرآن لم يتعرض بالتفسير إلا لما تقتضيه أحكام هذا الدين فى «افعل ولا تفعل» الأشياء التى إذا فعلتها نجوت، وإذا لم أفعلها عوقبت، أما ما هو متصل بقوانين هذا الكون مما سيكشفه الله من علم البشر فى المستقبل، وما سيظهر بعد ذلك للعالم، فلم يتعرض له التفسير، لماذا؟، لأن العقل ساعة نزول القرآن لم يكن عنده الاستعداد العلمى ليفهم حقائق الكون، ولذلك أخذ منها قدر حجمه، وأعطاه القرآن ما يعجبه ويرضيه، ثم مرت السنوات أو القرون، وظهرت حقائق علمية حديثة فتبين لنا أن عطاء القرآن فيها كان عطاء متجددا.

القرآن.. والنظريات العلمية

قبل أن نمضي في الحديث عن حقائق الكون، فإننا يجب أن نجيب على سؤالين هامين **السؤال الأول**: هو لماذا نحاول دائماً ربط القرآن بالنظريات العلمية؟ وهذا أخطر ما نواجهه، ذلك أن بعض العلماء فى اندفاعهم فى التفسير وفى محاولاتهم ربط القرآن بالتقدم العلمى يندفعون فى محاولة ربط كلام الله بنظريات علمية مكتشفة، يثبت بعد ذلك أنها غير صحيحة، وهم فى اندفاعهم هذا يتخذون خطوات متسرعة، ويحاولون إثبات القرآن بالعلم والقرآن ليس في حاجة إلى العلم ليثبت، فالقرآن ليس كتاب علم، ولكنه كتاب عبادة ومنهج، ولكن الله سبحانه وتعالى فى علمه علم أنه بعد عدة قرون من نزول هذا الكتاب الكريم، سيأتى عدد من الناس، ويقولون انتهى عصر الإيمان، ويبدأ عصر العلم، ولذلك وضع فى قرآنه ما يعجز هؤلاء الناس، ويثبت أن عصر العلم الذى يتحدثون عنه قد بينه القرآن فى صورة حقائق الكون، بينه كحقائق كونية منذ أربعة عشر قرنا، ولم يكشف العقل البشرى معناها إلا فى السنوات الماضية ولقد قلت: إن عطاء القرآن الكريم متجدد مصداقا للآية الكريمة: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ويجب أن ننتبه هنا إلى حرف السين فى كلمة ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ لأن معناها المستقبل والمستقبل هنا لا ينتهى بل إن عطاءه مستمر لهذا الجيل والجيل الذى بعده، إلى يوم القيامة ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى قد أعلمنا أن هناك حقائق وآيات سيكشف عنها لكل جيل ولكن ليس معنى هذا أن نحمل معانى القرآن أكثر مما تحتمل، وأن نتعامل معه على أساس أنه كتاب جاء ينبئنا بعلوم الدنيا، فالقرآن لم يأت ليعطينا أسرار علم الهندسة، أو علم الفلك، أو علم الفضاء، إلى آخر هذا، ولكن القرآن يبدأ من أول سورة بعد الفاتحة وهى سورة البقرة: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾ [البقرة]. أى: إنه كتاب هدى، ولكن الله سبحانه وتعالى وضع فى كتابه الكريم ما يمكن أن نرد به على الذين يحاربون هذا الدين حتى يوم القيامة ومن هنا فإن آيات الكون الكبرى التى أنبأنا الله بها فى القرآن الكريم، والتى نعرف بعضها، وبعضها لا نعرفه معرفة اليقين حتى الآن أرادنا الله سبحانه وتعالى أن نفحم بها أولئك الذين يقولون انتهى عصر الإيمان.. وبدأ عصر العلم، وأن يقول لنا: إن العلم الذى يحاول بعض المضلين أن يتخذوه إلها جديدا هو من علمى ومن خلقى، فلا تعبدوا المخلوق، وتتركوا الخالق، ولكن هذا لا يجعلنا

نتخذ العلم دليلا على صحة القرآن، بل إن القرآن هو الدليل الحقيقى على صحة أو عدم صحة العلم، فالعلم الذى يتناقض مع القرآن الكريم كاذب وغير صحيح.

والقرآن هو كلام الله المتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة، لا تغيير فيه ولا تبديل، ومن هنا فإن خطورة ربط القرآن الكريم بنظريات علمية كاذبة، وما أكثرها، تجعل موقف المفسر فى حرج عندما يثبت كذب هذه النظرية، فهو لا يستطيع أن يغير أو يبدل فى كلام الله.. ومن هنا يجب أن نتروى وأن ندرس بإمعان وننتظر حتى تثبت الحقيقة العلمية ثبوت اليقين قبل أن نتحدث عن ربطها بالقرآن الكريم ولا نأخذ حديثا براقا يكون مجرد فرض، وليس نظرية علمية، ونسرع ونربطه بكلام الله، وحينئذ نكون قد ارتكبنا خطأ كبيرا فى حق القرآن الكريم عندما يثبت كذب هذا الافتراض.

والسؤال الثانى: لماذا لم يفسر القرآن الكريم الآيات العلمية لأولئك الذين عاصروا نزول القرآن، وربما لأجيال بعدهم؟!

المعروف أن حقائق الكون التى أعلنها الله فى القرآن الكريم تمس قوانين كونية كبرى ينتفع بها الإنسان سواء علمها أو لم يعلمها، فالشمس ودوران الأرض، والجاذبية الأرضية والليل والنهار، وكل ما يتعلق بهذا الكون، وعلم الأجنة وما يدور فى الأرحام، وكل ما يتعلق باستمرار النوع البشرى، كل ذلك من قوانين الكون، وقوانين الخلق ينتفع بها الناس سواء علموا بها أم لم يعلموا، الملايين لا يعرفون شيئا عن جاذبية الأرض، ومع ذلك ينتفعون بكل قوانينها، والملايين لا يعرفون شيئا عن النظام الكونى والتوازن الدقيق الموجود فيه، ومع ذلك ينتفعون به، والملايين لا يعرفون شيئا عن حياة الطفل فى رحم أمه، ومع ذلك عدم العلم لم يمنعهم من إنجاب الأطفال.

ومن هنا لم يكن تفسير مثل هذه القضايا العلمية المتقدمة التى ذكرها القرآن ضرورة بالنسبة للذين عاصروا نزوله؛ لأنهم ينتفعون بها، سواء علموها أو جهلوها، ولذلك أعطاهم الله على قدر عقولهم، ثم فسر بعد ذلك للأجيال، كل جيل على حسب عقله.

نعود بعد ذلك إلى قول المستشرقين، هم يقولون: إن قوانين الكون تتصادم مع القرآن الكريم ونحن نؤكد لهم أن العلم الحديث قد أثبت أنه لا توجد حقيقة كونية واحدة تتصادم مع ما جاء فى القرآن، إن القرآن الكريم لا يتصادم مع قوانين الكون، أو مع خلق الكون، ولكن هذا التصادم المزعوم يأتى أحياناً عن حقيقة قرآنية أسىء تفسيرها لتبدو فى غير معناها الحقيقى، أو حقيقة علمية كاذبة يحاول الناس استغلالها

ضد القرآن، وكما قلت أعود فأكرر: إننا لا نريد أن نثبت القرآن بالعلم، بل إن العلم هو الذى يجب أن يثبت، ويلتمس الدليل من آيات القرآن الكريم، ذلك أن القرآن أصدق من أى علم من علوم الدنيا، ومن أى علم فى هذا العالم؛ لأن مكتشف هذا العلم أو مخرجه بشر، وقائل القرآن هو الله سبحانه وتعالى، ومن هنا كما قلت فإننى لا أحاول أن أثبت القرآن بالعلم الأرضى ولكننى أرد على الذين يقولون إن هناك تناقضا بين حقائق الكون الأساسية، وكلام الله تعالى.

حقائق قرآنية.. وإساءة تفسيرها

نأتي بعد ذلك إلى حقائق القرآن، وإساءة تفسيرها بحيث تتصادم مع حقائق علمية، بعض العلماء يقولون: إن الله سبحانه وتعالى قد قال: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ [الحجر: ١٩]. ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ [ق: ٧].

ومعنى المد: البسط، أي: بسطناها، ونحن نرى الأرض مبسوطة أمامنا، فلا تناقض بين القرآن الكريم، وبين الظاهر الموجود، ولكن عندما اكتشفت كروية الأرض، ثار علماء الدين واتهموا كل من يقول: إن الأرض كروية بالكفر؛ لأنه يخالف في رأيهم القرآن الكريم.

نقول لهم: لقد أسأتم تفسير حقيقة قرآنية، الله سبحانه وتعالى قد أعطانا الدليل على أن الأرض كروية، بل أعطانا أكثر من دليل على ذلك في القرآن، بل إن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه خلق الأرض على هيئة كرة، ولنناقش هذا كله.

لقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾.

أي: بسطناها، ولكنه لم يقل سبحانه وتعالى أي أرض مبسوطة، ومعنى ذلك أنك أينما تنظر إلى الأرض تراها مبسوطة، إذا كنت في خط الاستواء، فالأرض أمامك مبسوطة فإذا انتقلت إلى القطب الجنوبي فالأرض أمامك مبسوطة، وإذا كنت في القطب الشمالي فالأرض أمامك مبسوطة، وإذا كنت في أوروبا، أو أمريكا، أو آسيا أو أي قارة من قارات الأرض، فالأرض أمامك مبسوطة، الأرض مبسوطة أمام البشر جميعا في كل موقع هم موجودون فيه، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا كانت الأرض كروية، فلو أن الأرض مسطحة، أو مربعة، أو مثلثة، أو مسدسة، أو في أي شكل من الأشكال لوصلنا فيها إلى حافة، وحيث إنه لا يمكن أن تصل في الأرض إلى حافة فالشكل الوحيد الذي تراه مبسوطا أمامك ولا يمكن أن تصل فيه إلى حافة هو أن تكون الأرض كروية.

وهكذا أبلغنا القرآن في كلمتين اثنتين: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾، أترى مدى الإعجاز في القرآن الكريم. لقد أثبت الله كروية الأرض، وفي الوقت نفسه اختار العبارة التي لا تتصادم مع مفهوم العقل البشري في وقت نزول القرآن، ولكن في كلمتين اثنتين، أعطانا الله السر في الأرض، إعجاز لا يمكن يكون قائله بشر، ولكن الله سبحانه وتعالى أعطانا أيضا في أربع كلمات، أنه خلق الأرض على هيئة كرة، أي إنها كانت كذلك ساعة الخلق.

❁ ❁ ❁

ولا الليل سابق النهار

حينما نأتي إلى الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ ﴾ [يس: ٤٠].

يقول الله تعالى في سورة يس: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ ﴾ [يس: ٤٠].

والحديث هنا عن قوانين الكون، الشمس لا تدرك القمر؛ لأنهما كما قال العلماء يتحركان في خطين متوازيين لا يلتقيان أبداً، هذه حقيقة علمية ظهرت في السنوات الأخيرة، وذكرها القرآن منذ أربعة عشر قرنا، ولكن ما معنى: ﴿ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ ﴾؟

المعنى هنا: نفي لشيء موجود غير صحيح، يريد الله سبحانه وتعالى أن يصححه، يريد أن يزيل هذا الواقع الخاطئ، العرب كانوا يقولون: إن الليل يسبق النهار واليوم عند العرب يبدأ بغروب الشمس، بمعنى أن رمضان يثبت بعد غروب شمس آخر يوم من شعبان، والعيد يثبت بعد غروب شمس آخر يوم من رمضان، إذا كان العرب يقولون: إن الليل يسبق النهار، فمعنى ذلك أن النهار لا يسبق الليل.

إذن.. وجدت عندنا حقيقتان، الليل يسبق النهار، والنهار لا يسبق الليل، تركها الله ولم يتعرض لها؛ لأنها حقيقة، ولكنه جاء إلى كلمة أن الليل يسبق النهار، ورد عليهم بقوله تعالى: ﴿ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ ﴾.

إذن.. وجدت عندنا حقيقتان، لا النهار يسبق الليل، ولا الليل يسبق النهار، لا النهار يسبق الليل، حقيقة كانت موجودة، ولم يتعرض لها القرآن لأنها حقيقة، الليل يسبق النهار خطأ كان موجودا فصححه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ ﴾.

إذن.. لا النهار يسبق الليل، ولا الليل يسبق النهار، معنى ذلك أن الليل والنهار يوجدان معا في وقت واحد على الأرض؛ لأن النهار لا يسبق الليل، والليل لا يسبق النهار، وهذا لا يتأتى إلا إذا كانت الأرض كروية.

لكن ليس هذا هو القصد النهائي من الآية، الله سبحانه وتعالى أراد أن يصحح هذه الحقيقة ويقرر أن الليل والنهار موجودان معا على الأرض ليبلغنا عن حقيقة خلق الأرض لو أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الأرض مسطحة، فإما أن تكون الشمس ساعة الخلق في مواجهة السطح، وحينئذ يكون النهار قد وجد أولا، ثم يأتي بعد ذلك الليل، وإما أن تكون الشمس غير مواجهة للسطح ساعة الخلق، ومن هنا يكون الليل قد أتى أولا، ثم بعد

ذلك يأتى النهار، ولكن كون الله سبحانه وتعالى يقول لنا: إن النهار والليل خلقا معا، لم يسبق أحدهما الآخر، دليل على أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الأرض كروية؛ لأنه حدد الشكل الوحيد الذى يوجد فيه الليل والنهار على سطح الأرض معا ساعة الخلق، وهكذا نرى القرآن قد مس حقيقة هامة فى آية أو جزء من الآية يريد الله أن يخبرنا فيه بأنه خلق الأرض على هيئة كرة، وأنه أوجد الليل والنهار معا عليها، فيقول سبحانه: ﴿ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ ﴾.

وعندما يتقدم الذهن البشرى ويبحث ويعرف معنى الآية، نجد أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بكل هذه الحقائق عن خلق الأرض على هيئة كرة، وخلق الليل والنهار معا، فى بضع كلمات.

ننتقل بعد ذلك إلى قضية دوران الأرض حول نفسها، لنرى أن الله تعالى يمسها فى القرآن كحقيقة كونية، فهو يتحدث حين يقول سبحانه في سورة النمل: ﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ ﴾ [النمل: ٨٨].

الجبال رواس للأرض مفروض أن تثبتها من الحركة، ومن أن يحدث بها أى خلخلة أو اهتزاز، هذه الجبال هى الرواسى التى تجعل الأرض لا تميد بالإنسان، هى مركز الثبات التى إذا نظرت إليها، وإلى ضخامتها تعتقد أن الأرض ثابتة فى مكانها لا تتحرك خطوة واحدة ثابتة جامدة، يأتى الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ ﴾ [النمل: ٨٨].

لماذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ تَحۡسَبُهَا ﴾؟ قالها رحمة بالعقل البشرى، فالإنسان يظن أن الجبال جامدة، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن هذه الجبال التى نراها أمامنا ونحسبها جامدة تتحرك من مكان إلى آخر، ولكنها ﴿ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ ﴾ لماذا؟ لأن السحاب لا يملك ذاتية الحركة، لا يتحرك بنفسه، إنما تحركه الرياح فالسحاب بدون الريح يبقى فى مكانه، ولكن الرياح هى التى تدفعه من مكان إلى آخر ومن هنا فإن استخدام الله سبحانه وتعالى لكلمة: ﴿ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ ﴾، يريد أن ينبئنا أن الجبال التى نحسبها جامدة تتحرك ولكنها لا تتحرك بنفسها، بل هى تابعة لحركة أخرى تدفعها، تماما كما تدفع الرياح السحاب، وإذا كانت الجبال وهى أوتاد الأرض ولا تتحرك ذاتية من نفسها، فما الذى يدفعها؟ محرك آخر؟ وماهو المحرك الآخر؟ إنه الأرض، وكأن الجبال تتحرك بحركة الأرض، فلابد أن الأرض نفسها تتحرك وتدور وإلا فكيف تقوم بتحريك الجبال وهى ثابتة إن الجبال فى حركتها تابعة لشىء آخر يتحرك، تماما كالسحاب الذى يتبع فى حركته الريح والجبال ثابتة فوق الأرض فلا يوجد محرك آخر لها إلا الأرض، وهكذا مس الله سبحانه وتعالى دوران الأرض بشكل بديع يبين لنا أن الأرض تتحرك وتدور حول نفسها، وأن الجبال التى هى أوتاد الأرض تتحرك تابعة للأرض فى حركتها، وأننا نحسب

هذه الجبال جامدة، ولكن قول الله تعالى: ﴿ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ محتاج إلى وقفة، ذلك أنه يقدم لنا حقيقة علمية أخرى.

إنك حين تكون فوق جسم متحرك حركة رتيبة لا اهتزاز فيها فإنك لا تحس بهذه الحركة إلا إذا قست هذا الجسم إلى جسم ثابت، الطائرة حين تطير بنا، إذا نظرت من النافذة فإنى أحس بحركة الطائرة وطيرانها، ولكن إذا أقفلنا النوافذ، وكان الجو مستقرا ليس فيه أى اضطراب بحيث لم يصاحب هذا الطيران أى اهتزاز فإننى لا أشعر إطلاقا بحركة الطائرة، لماذا؟ لأن كل شىء داخل جسم الطائرة هو ثابت بالنسبة لى فالمقاعد ثابتة وموقع من يجلسون حولى ثابت، ولا أحس فى هذا بأية حركة وكذلك بالنسبة للقطار والسيارة، أنت حين تغلق النوافذ، وتكون الحركة ذاتية متزنة هادئة لا اهتزاز فيها، فإنك لا تحس الحركة، ولكن إذا فتحت النافذة وقست الحركة إلى شىء ثابت فإنك تحس بالحركة.

إذن.. فالله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا أنتم لا يمكنكم أن تدركوا حركة الجبال هذه بحسكم؛ لأن وضعها بالنسبة للأرض ثابت، ووضعها بالنسبة لكم ثابت، ووضعها بالنسبة لكل شىء حولها ثابت، ومن هنا فإنك تحسبها جامدة، ولا تفطن إلى حركتها أبدا؛ لأنه ليس هناك شىء أمامك تقيس الحركة به، ولكننى أقول لك: إن هذه الجبال تتحرك وهى فى حركتها ليس لها حركة ذاتية أى إنها لا تنتقل من مكان إلى مكان فوق الأرض، بل تتبع الأرض فى دورانها، ثم تتعجب أنت لذلك فيقول لك الله تعالى لا تتعجب إنه ﴿ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ ﴾ حينئذ يكون هناك يقين.

بعض الناس يقولون: إن هذا الوصف ينطبق على يوم القيامة، ولكننا نقول لهم إنه فى يوم القيامة لا يكون هناك حسبان ولكن يكون يقين..

﴿ فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴾ [ق: ٢٢].

ويقول الله سبحانه وتعالى عن الجبال يوم القيامة: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴾ [طه: ١٠٥].

فكيف ينسفها الله ثم نحسبها جامدة، ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

فى يوم القيامة، ينسف الله الجبال ويبددها، وكل شىء أمامك يكون يقينا، فأنت ترى الجنة، وترى النار، وترى الله رؤيا اليقين، فالحسبان فى الدنيا واليقين فى الآخرة.

الحديث عن الجنين.. لماذا؟!

على أن القرآن مس أشياء كثيرة، لو كان هذا كلاما من عند غير الله ما غامر من يقوله في أن يمس هذه الأشياء، الحديث عن الأجنة في القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝ ﴾ [المؤمنون].

ما الذى يجعل محمدا يقتحم قضية غيبية، ويقولها في القرآن الكريم وهى قضية يمكن أن تهدم الإيمان من أساسه، فالقرآن: كلام الله المتعبَّد بتلاوته لا تغيير فيه ولا تبديل إلى يوم القيامة، ماذا يمكن أن يحدث مع تقدم العلم لو ظهر أن هذا كلام غير صحيح؟ وكيف يمكن لقضية الإيمان أن تستمر؟ ولماذا يخاطر محمد صلى الله عليه وسلم في شيء غيبى كهذا؟ لم يطلب أحد منه أن يتحدث عنه، أو أن يتحداه فيه، ولكن لأن الخالق هو الله، والقائل هو الله، جاء الحديث عن الأجنة في القرآن قبل أن يصل إليه العلم ثم اكتشف العلم صحة كل كلمة في القرآن، إنه تحد، وتحد من الله سبحانه وتعالى [١].

❁ ❁ ❁

(١) روى البخارى [٣٢٠٨] ومسلم [٢٦٤٣/١] واللفظ له عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها.

حكمة تقديم
السمع على البصر فى القرآن

شيء آخر مسه القرآن مسا دقيقا وهو الجسم البشرى وعلم الأعضاء، الله سبحانه وتعالى يذكر الأذن دائما قبل العين، يقول الله: ﴿ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾، ولا يقول البصر والسمع.

يستوقفنا هذا؛ لأن الإنسان حين يفقد بصره، يفقد كل شيء، يعيش فى ظلام دائم لا يرى شيئا على وجه الإطلاق، ولكن حين يفقد سمعه فإنه يرى وحينئذ تكون المصيبة أهون، ولكن الله سبحانه وتعالى حين يذكر السمع لماذا يقدمه على البصر؟

إن هذا إعجاز فى القرآن، لقد قدم الله سبحانه وتعالى السمع على البصر؛ لأنه أول ما يؤدى وظيفته فى الدنيا؛ ولأنه أداة الاستدعاء فى الآخرة؛ لأن الأذن لا تنام أبدا.

إن السمع أول عنصر يؤدى وظيفته فى الدنيا، فالطفل ساعة الولادة يسمع ولكن العين لا تؤدى مهمتها لحظة مجيء الطفل فى الدنيا، فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا: إن السمع هو الذى يؤدى مهمته أولا، فإذا جئت بجوار طفل ولد منذ ساعات وأحدثت صوتا مزعجاً فإنه ينزعج ويبكى، ولكنك إذا قربت يدك من عين الطفل بعد الميلاد مباشرة فإنه لا يتحرك ولا يحس بالخطر، **هذه واحدة**.

وإذا نام الإنسان فإن كل شيء يسكن فيه إلا سمعه، إنك إذا أردت أن توقظ النائم ووضعت يدك قرب عينه فإنه لا يحس، ولكنك إذا أحدثت ضجيجاً بجانب أذنه فإنه يقوم من نومه فزعا، **هذه الثانية**.

أما الثالثة: فهى أن الأذن هى الصلة بين الإنسان والدنيا، الله سبحانه وتعالى حين أراد أن يجعل أهل الكهف ينامون مئات السنين قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف: ١١].

ومن هنا عندما تعطل السمع استطاعوا النوم مئات السنين من دون أى إزعاج، ذلك أن ضجيج الحركة فى النهار يمنع الإنسان من النوم العميق، وسكونها بالليل يجعله ينام نوما عميقا، إذن فالأذن هى التى تؤدى وظيفتها أولا، وهى لا تنام ولا تغفل أبدا وهى الصلة بين الإنسان والدنيا، وأداة الاستدعاء فى الآخرة، ولذلك قدمها الله سبحانه وتعالى.

على أن هناك شيئا آخر نلاحظه هو أن الله سبحانه وتعالى يأتى بكلمة السمع مفردة

دائما وكلمة الأبصار مجموعة، يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة فصلت: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ ﴾ [فصلت ٢٢].

لماذا تأتى كلمة السمع مفردة، وكلمة البصر مجموعة! مع أنه كان يمكن أن يقول الله سبحانه وتعالى مثلا: أسماعكم وأبصاركم، وكان من المفروض أو المنطقى أن يكون هناك سمع وبصر، أو أسماع وأبصار، ولكن الله سبحانه وتعالى بهذا التعبير أراد أن يكشف لنا دقة القرآن الكريم، فالبصر حاسة يتحكم فيها الإنسان بإرادته، فأنا أستطيع أن أبصر ولا أبصر وأستطيع أن أغمض عينى عما لا أريد أن أراه، أو أدير وجهى أو أدير عينى بعيدا عن الشىء الذى أريد أن أتجاهله، ولكن الأذن ليس لها اختيار فى أن تسمع أو لا تسمع فأنت فى حجرة يتكلم فيها عشرة أشخاص تصل أصواتهم جميعا إلى أذنك سواء أردت أم لم ترد، أنت تستطيع أن تدير بصرك فترى منهم من تريد أن تراه ولا ترى من لا تريد رؤيته، ولكنك لا تستطيع أن تسمع ما تريد أن تسمعه، ولا تسمع ما لا تريده، قد تتجاهله، وتحاول أن تبدو وكأنك لم تسمعه، ولكنه يصل إلى أذنيك سواء أرادت أو لم ترد؛ إذن فالأبصار تتعدد، أنا أرى هذا، وأنت ترى هذا، وثالث يرى هذا، إلى آخر تعدد الأبصار، وإنسان يغمض عينيه فلا يرى شيئاً، ولكن بالنسبة للسمع فنحن جميعا ما دمنا جالسين فى مكان واحد، فكلنا نسمع الشىء نفسه ومن هنا اختلف البصر وتوحد السمع، كل واحد له بصر، ينظر به إلى المكان الذى يريده، ولكننا كلنا نتوحد فى السمع فيما نريد، وما لا نريد أن نسمع، ومن هنا جاءت كلمة الأبصار، بينما توحدت كلمة السمع، ولم تأت كلمة الأسماع، على أن الأذن مفضلة على العين؛ لأنها لا تنام والشىء الذى لا ينام أرقى فى الخلق من الشىء الذى ينام، فالأذن لا تنام أبدا منذ ساعة الخلق، إنها تعمل منذ الدقيقة الأولى للحياة، بينما باقى أعضاء الجسم، بعضها ينتظر أياما وبعضها ينتظر سنوات.

والأذن لا تنام، فأنت حين تكون نائما تنام كل أعضاء جسمك، ولكن الأذن تبقى متيقظة، فإذا أحدث أحد صوتا بجانبك، وأنت نائم، قمت من النوم على الفور ولكن إذا توقفت الأذن عن العمل، فإن ضجيج النهار وأصوات الناس وكل ما يحدث فى هذه الدنيا من ضجيج لا يوقظ النائم؛ لأن آلة الاستدعاء وهى الأذن معطلة، كما أن الأذن هى آلة الاستدعاء يوم القيامة حين ينفخ فى الصور.

والعين تحتاج إلى نور حتى ترى، تنعكس الأشعة على الأشياء، ثم تدخل إلى العين فترى فإذا كانت الدنيا ظلاما فإن العين لا ترى، ولكن الأذن تؤدى مهمتها فى الليل والنهار، فى الضوء والظلام، والإنسان متيقظ، والإنسان نائم، فهى لا تنام أبدا، ولا تتوقف أبدا أعرفت الآن لماذا قدم الله سبحانه وتعالى السمع على البصر فى القرآن الكريم!

مراكز الإحساس تحت الجلد

شيء آخر يستوقفنا هو ما كشف عنه الله سبحانه وتعالى عن منافذ الحس، القرآن يلمس هنا حقيقة كونية هامة ؛ لأنه يأتي ويعلمني كيف أعرف منافذ الحس، أو مواضع الحس وهو يأتي بالحس هذا على أنه حقيقة كونية، ولكنه لا يشرحه ككتاب طبي بل يقول الحقيقة، فعندما يتحدث عن الكفار الذين يعذبون في النار، يقول الله تعالى: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦].

أي: إن الله قد حدد لي حكمة تبديل الجلد أو تغييره بأنه ليذيقهم العذاب، إذن فالإذاقة حسب القرآن محلها الجلد.

نأتي الآن إلى الحقيقة العلمية التي تؤكد لنا أن كل أعصاب الإحساس موجودة تحت الجلد مباشرة، وأن هذه الأعصاب التي تشعر بالألم وتجعل الإنسان يحس به وتنقله إلى المخ مكانها تحت الجلد مباشرة، إذن فقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾.

إعلان لحقيقة كونية يمسها الله في القرآن، وهي أن الإحساس يتم بأعصاب موجودة تحت الجلد مباشرة، وأن الله كلما أراد أن يذيق الكفار العذاب بدل جلودهم التي احترقت وماتت فيها أعصاب الإحساس بجلود سليمة لم تحترق ليذوقوا العذاب مرة أخرى، فحينما يأتي الطب ليقول لنا: إن أعصاب الجسم تحت الجلد مباشرة، نقول إن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا بهذه الحقيقة في القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا.

على أن نواحي الإعجاز في القرآن الكريم لا تقتصر على ما ذكرت لكن هذه بعض أمثلة بسيطة، ولقد تحدثت في الفصول الماضية أن الله سبحانه قد قال: ﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٦٩]، ولم يقل سيروا على الأرض، وبينت الإعجاز في ذلك بأننا نسير فعلا في الأرض، بين الغلاف الجوي والسطح، كما بينت معنى الآية الكريمة: ﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، ﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الروم: ٤٢]، ﴿ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ [المعارج: ٤٠]، وهذا كله يعتبر إعجازا هائلا للقرآن الكريم، وهناك نواحي إعجاز أخرى سنبين بعضها فيما بعد.

معرفة نوع الجنين.. وطفل الأنابيب هل هى حقيقة علمية؟!

إننا قبل أن ننتهى من هذا النقاش، يجب أن نتحدث عن حقيقة علمية، وهى ليست حقيقة علمية، يأتى بعض الناس ليقولوا: إن العلم قد استطاع أن يصل إلى نوع الجنين هل هو ذكر أم أنثى، ويزيدون على ذلك أن العلم استطاع أن يخلق ما يطلقون عليه طفلا صناعيا، وأن هذا يتناقض مع أحد المغيبات الخمسة، وهى: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ [لقمان: ٣٤].

ونحن نقول لمن يدعى هذا الكلام، من الذى قال لك: إن كلمة ﴿ مَا ﴾ معناها ذكر أم أنثى، أن كلمة ﴿ مَا ﴾ معناها شقى أم سعيد، طويل أم قصير، أبيض أم أسود، عمره رزقه، أجله، اسمه، كل شىء عن المخلوق الذى سيأتى إلى الدنيا، بل إن الله سبحانه وتعالى أخبر «زكريا» بابنه قبل أن يولد، وأخبره باسم هذا الابن، وهو اسم لم يكن البشر يَتَسمَّوْن به، وقال عن مستقبله عندما يكبر: إنه سيكون ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٩]كل ذلك تم قبل أن يوجد هذا الطفل فى رحم «زوجة زكريا» بل قبل أن يتم الخلق تماما، فهذا البلاغ كان فى المحراب، وزكريا يصلى يطلب ولدا.

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝ ﴾ [آل عمران].

إذن.. فالبشارة جاءت هنا وكل شىء عن المولود الجديد قبل أن يتم خلقه فى الرحم بل وأكثر من ذلك كان زكريا نفسه غير مصدق أن ذلك ممكن أن يحدث؛ لأنه كبير فى السن وامرأته عاقر، فى هذه اللحظة التى يستبعد فيها زكريا أن يرزق بطفل، أخبره الله أنه سيرزق بولد، ويكون اسمه «يحيى» وسيكون ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وهذا هو بعض تفسير كلمة: ﴿ مَا ﴾ فكيف يفسر البعض كلمة: ﴿ مَا ﴾ بذكر أو أنثى؟ مع أن كلمة: ﴿ مَا ﴾ تتناول كل شىء عن المولود قبل أن يولد، وفى أى أرض يموت ومستقبله، ومن سيتزوج، ورزقه، وهل هو سعيد أم شقى، طويل أم قصير، وكل ما سيحدث له، إن كلمة: ﴿ مَا ﴾ تتناول كل حرف فى حياة الإنسان وما سيشهده وكيف سيعيش وإلى أى البلاد سيهاجر، إذن

فعلم الله سبحانه وتعالى فى كلمة: ﴿ مَا ﴾ على غير محدد، فكيف تأتى أنت وتحدده بذكر أم أنثى، مع أن الله سبحانه وتعالى لم يحدده، بل قال: ﴿ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾؟

على أن حقيقة الذكر والأنثى ليست حقيقة علمية، ذلك أن الزوجة لا تعرف ما إذا كانت ستلد ذكرا أو أنثى، وفى بعض الأحيان تقول: أنا سأرزق بولد، وترزق بولد وفى بعض الأحيان تقول: أنا سأرزق ببنت وترزق ببنت، وليس معنى ذلك أنها تعلم الغيب ولكن هناك ٥٠٪ من الحقيقة فى كل افتراض، هناك ٥٠٪ ولد، و ٥٠٪ بنت وأنت إن جاء تخمينك صحيحا فلأن معك ٥٠٪ منه، ولو كانت أجناس البشر متعددة غير ذكر وأنثى، لو كانوا ٢٠ جنسا مثلا لكان الاستناد إلى العلم هنا فيه شىء من الدقة؛ لأن التمييز بين عشرين جنسا والتنبؤ بما هو قادم منا يحتاج فعلا إلى طريقة علمية دقيقة، ولكن التمييز بين ذكر أو أنثى يمارسه بعض الناس الذين لم يقرأوا فى حياتهم كتابا، يقولون لامرأة حامل: يظهر عليك أنك سترزقين بولد، ويأتى المولود ولدا فعلا، فهل معنى ذلك أنهم يعلمون ما فى الأرحام؟! إنها مسألة يصدق فيها التخمين كثيرا، ولكن بعض الناس يأتون ويُهلّلون ويقولون: إن أحد المغيبات الخمسة قد انتفى، وهذا غير صحيح على الإطلاق، إن قوله تعالى: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ يشمل أكثر كثيرا من علم البشر من الآن وحتى يوم الدين.

نأتى بعد ذلك إلى المنطقة الأخرى وهى الطفل الصناعى، وهذه نقطة يثور حولها الجدل فى هذه الأيام حول طفل الأنابيب، وما إلى ذلك، وأنت إذا أردت أن تصنع بشرا فالمفروض أن تأتى بالمادة الحية تصنعها أولا ولكنك حينما تأخذ ما خلق الله وتتيسر عملية الخلق بما كشف الله لك من علم، لا يكون هذا أبدا فيه صناعة أو طفل صناعى، أنت أخذت ما خلقه الله من الرجل وأوجدت له الطريقة ليتم ما أراده الله فيما خلقه الله للأنثى إذن لم تفعل شيئا سوى أنه كان هناك سبب يمنع الحمل، واستطعت أن تتغلب عليه بطريقة ما، ولكن المادة الحية والرحم الذى نما فيه الطفل هما من خلق الله سبحانه وتعالى، فأين ما خلقت أنت من طفل صناعى، أو طفل الأنابيب؟! إنك لم تخلق شيئا، وإذا كان الله قد يسر سبيلاً لتعالج عقما باستخدام ما خلقه الله لاستمرار حياة البشر فى الأرض، فأنت لم تخلق شيئا، ولو أردت فعلا أن ترينا أنك تستطيع أن تخلق طفلا صناعيا، فابدأ أولا بخلق المادة الحية، والعلم كله عاجز عن أن يخلق خلية حية، ولكن كل هذا محاولة للإضلال.

على أن معجزة القرآن لم تأت لتبين أو تكشف عن بعض أسرار الكون، وتلمس الحقائق الكونية، وإنما جاءت لتتحدى، القرآن مادام معجزاً فلابد أن فيه تحديا، ولقد تحدى القرآن العرب بالبلاغة، ولكنّ الإسلام هو دين البشرية كلها، ولذلك كان للقرآن أن يتحدى الذين عاشوا وقت نزوله من غير العرب، ثم يحمل تحديا لكل جيل بعد ذلك وإلا فالمعجزة لا تكون قائمة.

ولقد استطاع القرآن أن يمزق حجب الغيب كلها، مزق حجاب الماضى، ومزق حجاب الحاضر، ومزق حجاب المستقبل، ومزق حجاب النفس البشرية، ومزق حجاب كل الأشياء التى لا يمكن أن يصل إليها علم إلى الآن، ومازال القرآن يتحدى ولا أحد يستطيع أن يواجه هذا التحدى.

حينما جاء القرآن تحدّى فى أشياء كثيرة تحدثت عنها، ولكنه فى تحدّيه مزّق حواجز الغيب، مزّق حواجز الزمان والمكان، فحواجز الغيب ثلاثة، أولها حاجز المكان، أى إن أشياء تحدث فى اللحظة نفسها، ولكن لا أعرف عنها شيئا ؛ لأنها تحدث فى مكان وأنا موجود فى مكان آخر.

ثم هناك حاجز الزمن الماضى، وهو شيء حجبه عنى زمن مضى، فأنا لم أشهده وحاجز المستقبل وهو ما سيحدث غدا ؛ لأن حاجز الزمان المستقبل قد حجب عنى فلم أشهده إذن فحواجز الغيب ثلاثة، حاجز المكان، وحاجز الزمن الماضى، وحاجز الزمن المستقبل على أن هناك أيضاً حاجزا آخر، هو حاجز النفس البشرية، ما يخفيه الإنسان داخل نفسه.

إذا قرأنا القرآن وجدنا أنه يمزق حاجز الزمن الماضى، فيخبرنا بما حدث للأمم السابقة ويروى لنا قصص الرسل السابقين، ويحكى لنا أشياء لم يكن أحد يعرفها، وعلى لسان من؟ على لسان نبى أمى لا يقرأ ولا يكتب، ويحكى أسرار الماضى، ويتحدى الذين يكذبون مزق الله حجاب الزمن الماضى، ويكفى أن تقرأ فى القرآن، «وما كنت وما كنت وما كنت»، لتعرف كم أخبر الله رسوله بأنباء من غيب الماضى.

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ [القصص: ٤٤].

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران: ٤٤].

أى: إنك لم تكن هناك يا محمد، ولكن الله هو الذى أخبرك ومزق لك حجاب الزمن الماضى.

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ [القصص: ٤٥].

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٤٦].

وهكذا نرى أن القرآن مزّق حجاب الزمن الماضى فى أكثر من مناسبة ليخبر محمدا عليه السلام بالأخبار الصحيحة عمّن سبقوه من الرسل والأنبياء، ويصحح ما حُرّف من الكتب السماوية التى أنزلها الله وحرّفها الرهبان والأحبار.

بل إن الإعجاز هنا جاء فى تصحيح ما حدث من تحريف الكتب السماوية التى سبقت القرآن، وكان محمد صلى الله عليه وسلم يتحدى بالقرآن أحبار اليهود ورهبان النصارى ويقول لهم: هذا من عند الله، فى التوراة أو الإنجيل، وهذا حرفتموه فى التوراة

أو الإنجيل ولم يكونوا يستطيعون أن يواجهوا هذا التحدى أو يردوا عليه، ذلك أن التحدى للقرآن فى تمزيق حجاب الزمن الماضى، وصل إلى أدق أسرار الرسالات السماوية الماضية، فصححها لهم، وبيّن ما حرفوه منها وما أخفوه، وتحداهم أن يكذبوا ما جاء فى القرآن فلم يستطيعوا ومن ذلك قوله تعالى فى سورة مريم: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مريم: ٣٤].

ثم جاء الأمر الثانى، فمزق الله حجاب المكان لمحمد صلى الله عليه وسلم، وجاء فى أمر من أدق الأمور وهو حديث النفس.

وهنا وقبل أن نبدأ، أُحب أن نضع فى أذهاننا جيداً، أن القرآن هو كلام الله المتعبد بتلاوته، وأنه يبقى بلا تعديل ولا تغيير ولا يجرؤ أحد على أن يمسه أو يحرفه، ومن هنا فإن هذا الكلام حجة على محمد صلى الله عليه وسلم مأخوذ عليه، فإذا أخبر القرآن بشىء، واتضح أنه غير صحيح، كان ذلك هدما للدين كله.

يأتى القرآن بعد أن بينت خطورة ما يقول: ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ﴾ [المجادلة: ٨].

ما معنى هذا الكلام؟ معناه إمعان فى التحدى، فالقرآن هنا لا يقول لهم لقد هتكت حاجز الماضى، وأخبرتكم بأنباء الأولين، ولا يقول لهم سأهتك حاجز المكان، وأخبركم بما يدور فى بقعة قريبة لا ترونها، بل يقول: سأهتك حاجز النفس، وأخبركم بما فى أنفسكم بما فى صدوركم، بما لم تهمس به شفاهكم، وكان يكفى لكى يكذبوا محمدا أن يقولوا لم تحدثنا أنفسنا بهذا، لو لم يقولوها بالفعل داخل أنفسهم لكان ذلك أكبر دليل لكى يكذبوا محمدا ويعلنوا أنه يقول كلاما غير صحيح، إذن فالقرآن فى هتكه لحجاب المكان دخل إلى داخل النفس البشرية، وإلى داخل نفوس من؟ إلى داخل نفوس غير المؤمنين الذين يهمهم هدم الإسلام، وقال فى كلام متعبد بتلاوته لن يتغير، أو يتبدل، قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [المجادلة: ٨].

قال ما يدور فى أنفس غير المؤمنين، فهل هناك أكثر من هذا تحد لحجاب المكان، إنه تحد فوق قدرة كل الاختراعات البشرية التى وصل إليها العلم الآن لاختراق حجب المكان.

❁ ❁ ❁

ومن معجزة القرآن..
إظهاره لما فى النفس وتعريتها

بل إن التحدى ظهر فيما يحرص غير المؤمنين على إخفائه، فالإنسان حين يحرص على إخفاء شيء، ويكون غير مؤمن، يأتى إليك يحلف لك بأن هذا صحيح، وهو غير صحيح فى نفسه فقط، ولكن حرصه على أن يخفيه على الناس يجعله يؤكد أنه صحيح بالحلف.

ويأتى الله سبحانه وتعالى فيجعل القرآن يمزق نفوس هؤلاء الناس، ويظهر ما فيها إمعانا فى التحدى ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٤٢].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٦].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [المجادلة: ١٤].

ويقول الله تعالى إمعانا فى كشفه ما فى نفوس أولئك الذين يكذبون بهذا الدين.

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ [محمد: ٣٠].

وهكذا يأتى الله سبحانه وتعالى ليقول للنبى عن المنافقين، إنك تعرفهم فى لحن القول أى إنهم يلحنون ويلوون ألسنتهم بالقرآن وهذا أمر اختيارى، أى: إنهم يستطيعون أن يفعلوه ويستطيعون أن يمتنعوا عن فعله، والله عندما ينزل هذه الآية يكون الفعل لم يتم أى إنهم يفاجأون بالآية قبل أن يقوموا بما ينوون القيام به، ومن هنا يكون لهم حرية الاختيار.

ومع وجود حرية الاختيار، فإنهم يأتون ليقوموا بما قاله الله فى القرآن الكريم من دون أن يستطيعوا أن يتراجعوا عن ذلك، بل إن الله سبحانه وتعالى يخرج من الأسرار ما يخفونه داخل صدورهم ولا يقولوه لأحد، فالسر نوعان:

- سر بينى وبينك، أى لا يعلمه إلا أنا وأنت كصديقين أو حليفين.
- وسر آخر فى صدرى ولا يعلمه أحد فى هذه الدنيا.

ويأتى الله سبحانه وتعالى إلى السر الذى أخفيه فى صدرى ولا يعلمه أحد فيفضحه أو يعلنه، وأنا فى هذه الحالة أملك كل وسائل التكذيب؛ لأنه لا أحد يعرف هذا السر

غيرى ومع ذلك أقف مبهوتا من أن القرآن الكريم قد أظهر ما فى نفسى، وما أخفيته فلا أستطيع أن أكذب، مع أننى جئت لأقول الكذب، أى: إن المنافقين الذين ذكرهم اللّه سبحانه وتعالى جاءوا ليكذبوا، ولكن عندما فضح اللّه سرهم، بُهتوا فلم تستطع ألسنتهم أن تنطق بالكذب، بل وأكثر من ذلك قال اللّه سبحانه وتعالى إنهم سيقولون كذا، وسيفعلون كذا والسين هنا تدل على أن الفعل لم يتم، ومع ذلك لم يستطع المنافقون أن يمنعوا أنفسهم من أن يقولوا ما أعلن اللّه سبحانه وتعالى أنهم سيقولونه، مع أن فى امتناعهم عن القول هدماً لقضية الدين والإيمان.

إذن.. فالقرآن هنا جاء لأناس غير مؤمنين، وهتك حاجز النفس بالنسبة لهم فأخرج ما فى صدورهم وعرّاهم أمام الناس جميعا وفضح كذبهم ونشر على الدنيا كلها ما فى صدورهم من كذب ورياء ونفاق، أى إنه أهانهم أمام المجتمع كله، ولو كان هذا غير صحيح لقال هؤلاء القوم: إننا لم نكذب، إننا لصادقون، والكلام الذى يدّعى محمد أنه يأتى من عند اللّه كلام غير صحيح.. ولكن هؤلاء بهتوا من أن القرآن مزق حجاب نفوسهم فلم يستطيعوا ردا وبُهتوا؛ لأن اللّه أخرج ما فى صدورهم وعرّاهم أمام الناس جميعا، فلم يفعلوا شيئا أكثر من أنهم تواروا بعد أن افتضحت حقيقتهم، ولو كان هذا القرآن من عند غير اللّه لما استطاع أن يصل إلى داخل النفس البشرية، وهى من أدق أسرار الدنيا التى لم يستطع علم أن يصل إليها حتى الآن، فإذا بالقرآن يأتى متحديا بكلام متعبد بتلاوته إلى يوم القيامة لا يستطيع أحد تبديل حرف فيه ليكشف مافى داخل النفس ويعرى ما تكتمه عن الناس جميعا، وما هى حريصة على كتمانه، حتى إنها تحلف باسم اللّه كذبا ليصدقها الناس يأتى القرآن فيمزق هذا كله، أتريد إعجازا أكثر من ذلك.

ومن معجزة القرآن.. إخباره بما سيكون قبل أن يكون

ثم بعد ذلك مزق القرآن حجاب المستقبل، كان لابد أن يكون الحديث عن المستقبل على عدة مراحل، المرحلة المعاصرة لكي يعرف أصحاب الرسالة والمؤمنون وغير المؤمنين أنه الحق ومرحلة المستقبل البعيد لكي يعرف كل عصر من العصور التي ستأتي بعد نزول القرآن، إن هذا هو كتاب الله الحق، ومن هنا كان التحدي بالنسبة للمعاصرين لأحداث قريبة، وبالنسبة للعالم عن حقائق الكون كله، هنا أحب أن أنبه إلى شيء هام جدا هو استخدام حرف السين في القرآن: فحرف السين كما نعرف في اللغة العربية لا يستخدم إلا بالنسبة لأحداث مُستقبَلة، والقرآن محفوظ ومتعبد بتلاوته، وسيظل محفوظا حتى يوم الساعة ومعنى ذلك أنه لا يمكن تبديله أو تغييره أو إنكاره من أحد من المتعبدين به، بل إنه سيظل يتلى هكذا كما أنزل، إذن فإنباء القرآن بأحداث مستقبلة يسجل هذه الأحداث على قضية الإيمان نفسها ويطعن الدين في صميمه وخصوصا إذا تبين أن ما تنبأ به القرآن غير صحيح ومن هنا فلابد أن يكون قائل القرآن متأكدا من أن هذا سيحدث في المستقبل، مَنْ مِن البشر يستطيع أن يتأكد ماذا سيحدث له بعد ساعة واحدة، فما بالك بعد أيام وسنوات والجواب لا أحد، ذلك أن قدرة البشر في صنع الأحداث محدودة، فقد حجب عنهم الزمن، وحجب عنهم المكان، فلو قلت مثلا إنني سأبني عمارة في هذه البقعة بعد عام، أنا لا أضمن أنني سأعيش حتى الساعة القادمة، وبذلك لا أستطيع أن أحكم إذا كنت سأكون موجودا هناك أم لا، هذه واحدة، ثانيا قد تأتي الحكومة مثلا وتبني مستشفى في هذا المكان، أو قد يقام في هذا المكان سوق أو شارع، إذن فأنا لا أستطيع أن أجزم في شيء مادي سيحدث بعد فترة زمنية محددة، ولكن الذي يستطيع أن يقول هذا يقينا هو الذي يملك القدرة، ومن هنا فإنه يستطيع أن يقول يقينا إن هذا سيحدث بعد فترة من الزمن والذي يملك ذلك هو الله سبحانه وتعالى، فإذا كان الحديث عما سيحدث بعد آلاف السنين، فإن ذلك فوق طاقة البشر جميعا، ولقد أنبأ القرآن بما سيحدث بعد أعوام قليلة ربما سيحدث بعد آلاف السنين، فالذي قال هذا هو القادر العالم أن ذلك سيحدث يقينا وهو الله سبحانه وتعالى، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥].

لقد نزلت سورة القمر هذه في مكة، والمسلمون قلة، وأذلة، حتى إن عمر بن

الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: أى جمع هذا الذى سيهزم ونحن لا نستطيع أن نحمى أنفسنا وهكذا يتنبأ القرآن بأن الإسلام سينتصر فى مكة، وأن هؤلاء الجمع الذين تجمعوا لمحاربة الإسلام فى مكة سُيهزمون ويُولّون الأدبار، ويتنبأ بها متى والمسلمون قلة، وأذلة، لا يستطيعون حماية أنفسهم، ويطلقها قضية، هو على يقين من أن الله الذى قالها سيحققها وبعد ذلك نجد عجبا، الوليد بن المغيرة، العدو الألد للإسلام، والمشهور بكبريائه ومكابرته وعناده يأتى القرآن ويقول عن هذا الإنسان المكابر العنيد: ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ [القلم: ١٦].

أى: إنه سُيقتل بضربة على أنفه، ويحدد موقع الضربة، وبعد ذلك يأتى فى بدر فتراه قد وُسم على خرطومه، أى ضُرب على أنفه، من الذى يستطيع أن يحدد موقع الضربة ومكانها، من الذى يستطيع أن يجزم ماذا سيحدث بعد ساعة واحدة؟

إخباره عن موت أبى لهب كافراً!

نأتى بعد ذلك إلى آية أخرى، الرسول صلى الله عليه وسلم يأتى فيقرأ: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۞ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۞ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۞ ﴾ [المسد].

هذا قرآن، وفى من؟ فى عم الرسول، وفى من؟ فى عدو الإسلام، ألم يكن أبو لهب يستطيع أن يحارب الإسلام بهذه الآية؟ ألم يكن يستطيع أن يستخدمها كسلاح ضد القرآن؟ ضد هذا الدين، قالت له الآية: يا أبا لهب أنت ستموت كافرا ستموت مشركا وستعذب فى النار، وكان يكفى أن يذهب أبو لهب إلى أى جماعة من المسلمين، ويقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، يقولها نفاقا ويقولها رياء، يقولها ليهدم بها الإسلام، لا ليدخل فى الإسلام، يقولها ثم يقف وسط القوم يقول: إن محمدا قد أنبأكم أننى سأموت كافرا، وقال: إن هذا كلام مُبلَّغ له من الله، وأنا أُعلن إسلامى لأُثبت لكم أن محمدا كاذب، لو كان أبو لهب يملك ذرة واحدة من الذكاء لفعل هذا ولكن حتى هذا التفكير لم يجرؤ عقل أبى لهب على الوصول إليه، بل بقى كافرا مشركا مات وهو كافر، ولم يكن التنبؤ بأن أبا لهب سيموت كافرا، أمرا ممكنا؛ لأن كثيرا من المشركين اهتدوا إلى الإسلام كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعمر بن الخطاب وغيرهم كانوا مشركين وأسلموا، فكيف أمكن التنبؤ بأن أبا لهب بالذات لن يسلم ولو نفاقا وسيموت وهو كافر. المعجزة هنا أن القرآن قد أخبر بما سيقع من عدوه وتحدّاه فى أمر اختيارى، كان من الممكن أن يقوله، ومع ذلك هناك يقين أن ذلك لن يحدث لماذا؛ لأن الذى قال هذا القرآن، يعلم أنه لن يأتى إلى عقل أبى لهب تفكير يكذب به القرآن، هل هناك إعجاز أكثر من هذا؟

إخباره عن نتيجة معركة قبل أن تقع

ننتقل بعد ذلك إلى النقطة الثانية، وهى ماذا حمل القرآن لغير العرب فى عصره، ولغير العرب والدنيا كلها بعد عصره؟

أى: ماذا حمل القرآن من أنباء نواميس الله فى الأرض وقوانينه، التى كانت غيبا على البشرية كلها فى عصره وبعد عصره؟ هنا الأمثلة كثيرة، والمجال لا يتسع لها كلها ولكنى سأحاول أن أبين عددا منها فيما يختص بالإعجاز فى عصر القرآن لغير العرب فقد كانت هناك أمتان كبيرتان؛ إمبراطوريتان بجانب الجزيرة العربية، هما الروم والفرس الروم أمة مؤمنة، أهل كتاب، ولو أنهم لا يصدقون برسالة محمد إلا أن هناك عندهم إيمانا بوجود الله، والقيم السماوية، والفرس كانوا أهل كفر وإلحاد فى ذلك الوقت، لا يؤمنون بأى دين من الأديان، إذن فأيهما أقرب إلى قلب المؤمنين، الروم باعتبارهم أهل كتاب، وأيهما أقرب إلى قلب الملحدين والكفار؟ الفرس باعتبارهم مشركين وكفرة. قامت الحرب بين الدولتين، فهزم الروم وانتصر الفرس، وهنا فرح المشركون؛ لأن الكفر قد انتصر، وحزن المؤمنون؛ لأن نوعا من الإيمان قد انهزم، هنا يتدخل الله سبحانه وتعالى ليزيل عن المؤمنين هذا الحزن، فيقول فى كلام محفوظ مُتعبَّد بتلاوته لن يجرؤ ولن يستطيع أحد أن يغير فيه، يقول: ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾ [الروم].

ثم يمضى القرآن ليُمعن فى التحدّى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦].

ما هذا؟ أيستطيع محمد صلى الله عليه وسلم أن يتنبأ بنتيجة معركة ستحدث بين الروم والفرس بعد بضع سنين؟! هل يستطيع قائد أن يتنبأ بمصير معركة عسكرية بعد ساعة واحدة من قيامها؟! فما بالك أن ذلك يأتى ويقول: إنه بعد بضع سنين ستحدث معركة بين الفرس والروم وينتصر فيها الروم. هل أمن محمد صلى الله عليه وسلم على نفسه أن يعيش بضع سنين ليشهد هذه المعركة، لقد وصل الأمر لأبى بكر رضى الله تعالى عنه، أنه راهن على صحة ما جاء به القرآن.

إذن.. فقد أصبحت قضية إيمانية كبرى، هذا هو القرآن، كلام الله، وأساس الإيمان كله يأتى ويخبر بحقيقة أرضية قريبة ستحدث لغير العرب، ويقول الكفار إن

القرآن كاذب ويقول المؤمنون إن هذا صِدْق ويحدث رهان بين الاثنين.

ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنه لم تحدث معركة بين الروم والفرس، أو لو أنه حدثت معركة وهُزم فيها الروم، أكان بعد ذلك يصدق أى إنسان القرآن أو يؤمن بالدين الجديد ثم إذا كان القرآن من عند محمد فما الذى يجعله يدخل فى قضية غيبية كهذه، لم يطلب منه أحد الدخول فيها، أيضيع الدين من أجل مخاطرة لم يطلبها أحد، ولم يتحداه فيها إنسان ولكن القائل هو الله، والفاعل هو الله، ومن هنا كان هذا الأمر الذى فى القرآن يقينا سيحدث ؛ لأن قائله ليس عنده حجاب الزمان وحجاب المكان، ولا أى حجاب وهو الذي يقول ما يفعل، ومن هنا حدثت الحرب وانتصر الروم على الفرس فعلاً كما تنبأ القرآن.

وهكذا تحدى القرآن الكفار وغير المسلمين فى وقت نزوله، أى إنه لم يتحد العرب وحدهم، بل تحدى الكفار والمؤمنين من غير العرب، بأن أنبأهم بما سيحدث لهم قبل أن يحدث بسبع أو ثمانى سنوات، تحداهم بهذا علّهم يؤمنون.

إذا انتهينا إلى هذا نكون قد أثبتنا أن القرآن تحدى العرب وغير العرب فى وقت نزوله ولكننا قلنا: إن القرآن ليس له زمان، وليس له مكان، وأنه سيظل حتى قيام الساعة فكيف يمكن أن يتحدى الأجيال القادمة؟ لابد أن يكون للقرآن معجزة دائمة، وأن يعطى عطاء لكل جيل لم يعطه للأجيال السابقة.

وقد كان فى القرآن أشياء لو أن أحداً أخبر بها وقت نزولها لاتهم الذين قالوها بالجنون ولكنها جاءت للعصور القادمة، جاءت لتتحدى عبر الأجيال إلى يومنا، وإلى الأيام القادمة.

قانون الصدفة ؛
ونظرية داروين.. وتحدى القرآن

إن ظهور قانون الصدفة، ونظرية داروين، وأن المادة خلقت قبل الروح، وكل ما نسمعه اليوم من تشكيك فى الإيمان وفى وجود الله سبحانه وتعالى، قد سجّله القرآن وأنبأنا به وقال: إن المضلين سيأتون ليقولوا لكم أكاذيب عن خلق السماوات والأرض وعن قضية خلق الإنسان.

وإذا لم يكن الحديث عن الأجنة فى القرآن، عن يقين كامل، فكأن القرآن قد أعطى معه وسيلة هدمه، ذلك أن هذا الكتاب سيستمر إلى يوم القيامة، فإذا جاء العلم عبر ألوف السنين، وأثبت عدم صحة ما ذكره القرآن، ضاعت قضية الإيمان كله، ولكن القائل هو الله والفاعل هو الله.

إن إعجاز القرآن لم يتوقف، ولن يتوقف، وإذا كان القرآن قد تحدى الكفار فى عصر نزوله بأن أنبأهم بما يدور داخل صدورهم وأنبأهم بمصائرهم، فإنه يتحدى الكفار حتى فى هذا الزمان، فى هذا الوقت الذى نعيش فيه، بل ويستخدمهم، فى ماذا؟ فى إثبات قضية الإيمان، تماما كما استخدمهم وقت نزوله فى إثبات قضية الإيمان، إن هدف الكفار والمضلين عن سبيل الله هو إنكار هذا الدين وإنكار وجود الله، ولكن القرآن جاء، وبعد أربعة عشر قرنا ليستخدم الكفار فى إثبات أن دين الله حق، وأن هذا الكتاب هو كلام الله المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وهذا هو موضوعنا عندما يقول الله تعالى:

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٦٨].

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٣٨].

﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٦].

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

ويقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

من الممكن أن الله قد أعطى الإنسان ما به يعلم ظاهراً من الحياة فى هذه الدنيا ولكنه غافل عن أمر الآخرة، أى إن مدى علم الإنسان، هو الحياة الدنيا، وأن العلم نوعان: نوع مطروح لك ؛ لإيجاد نشاطك فيه كما تريد وبلا قيود ولا حدود، ونوع ليس لك الحرية فى البحث فيه لأنك لا تعلمه، وهذا النوع افعل كذا، ولا تفعل كذا، تقرّب إلىّ بكذا، واترك كذا هذه ليست اجتهاداتك أنت ؛ لأن المعبود هو الذى يقترح على العابد ما يعظمه به والنقاش فى شىء يجب أن يتم بين عقول متساوية أو متقاربة فى الصورة، ومن منا يملك عقلاً يقترب من قدرة الله تعالى؟ لا أحد.

إذن . . فنحن نأخذ افعل ولا تفعل عن الله، وما بينته لنا السُّنة، أما نشاطات الحياة الأخرى، وآيات الله فى الكون، فالمطلوب أن أبحث فيها وأتأمل، وأصل إلى حقائق أنتفع بها، فإذا أردنا أن نحدد هذه الموضوعات، نجدها فى القرآن، فى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝ ﴾ [فاطر]

وهكذا نرى أن الله سبحانه تكلم عن الجماد، وتكلم عن النبات، وتكلم عن الحيوان والإنسان، ثم يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].

العلماء فى ماذا؟ فيما يتعلق بخلق الله من الجماد والحيوان والنبات والإنسان ولذلك جاء الله سبحانه وتعالى بالمتناقضات الموجودة فى النوع الواحد، لو أنه جنس واحد لما وجد فيه متناقضات، إنما قوله تعالى: ﴿ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ [فاطر: ٢٧].

كان يجب أن تلتفت إليها، ولماذا اختلفت ألوانها، وما هى العلاقة بين الألوان والطبيعة؟ مثلا حينما يتغذى النبات وجد من الدراسة أنه يتغذى بواسطة خاصية الأنابيب الشعرية وهنا نقف قليلا ؛ هل هذه الأنابيب الشعرية تميز، هل تستطيع التمييز؟ إذا جئنا بحوض ووضعنا فيه سائلا مذابا فيه أصناف مختلفة، ثم جئنا بالأنابيب الشعرية، تجد أن الماء قد صعد فى مستوى أعلى من مستوى الإناء، ولكن هل كل أنبوبة ميزت عنصرا أخذته، أم أن كل أنبوبة أخذت من جميع العناصر وهى مذابة، لكن النبات ليس هكذا، إننى أزرع الحنظل بجانب القصب فيخرج هذا حلوا وهذا مرا، هذا يأخذ عناصره، وهذا يأخذ عناصره من التربة نفسها، إذن . . هناك اختيار، ومن هنا ظهر ما سمى بخاصية الانتخاب الانتخاب معناه: الاختيار بين بديلات، أى إنك تترك هذا وتأخذ هذا، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ [الرعد: ٤].

لكن خاصية الأنابيب الشعرية تتعامل مع السائل كله بلا تمييز، ومن هنا نعرف أن الخاصية شىء، واختيار النبات للعناصر الغذائية التى يريدها أو يحتاج إليها شىء آخر.

تأتى بعد ذلك للجماد، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر: ٢٧].

هذا علم الجماد، وهو علم تحويه الآن مجلدات، ثم بعد ذلك الإنسان، أجناس الوجود كلها، ثم بعد ذلك قال الله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].

العلماء فى ماذا؟ فى هذه كلها، إذن.. فكلمة العلماء أطلقت على من يتفكر فى خلق الله سواء أكان جمادا أو حيوانا أو نباتا، والذهن النشط يستطيع أن يصل إلى هذه العلوم الأرضية بالملاحظة والتجربة، والدليل على ذلك إذا استعرضت تاريخ أى مخترع من المخترعات فى الكون التى أراحت الناس، تجد أنها نتيجة لإنسان قد لاحظ بدقة، ولم تمر عليه المسألة كباقى الناس، والعلم مكانه المعمل والملاحظة والتجربة.

❁ ❁ ❁

الروح والمادة.. والتجاوز بلا دليل

أحيانا نتجاوز موضوع التجربة والمعمل، وذلك عندما أقول مثلاً الروح قبل المادة أو المادة قبل الروح، فهذا بحث فى عُنصرَىْ تكوين الإنسان، الذى لم تشهد خلقه ولا تستطيع أن تجرى عليه تجربة، إن هذا يدخل فى علم الله، فهو الذى خلق، وهو الذى يستطيع أن يقول لنا كيف تمّ الخلق، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف: ٥١].

إذن.. فهذه مسألة لا يمكن أن يصل فيها العلم البشرى إلى نتيجة، لماذا؟ لأننا لم نحضر التجربة، ولم نرها بالعين، ولا نستطيع أن نجريها أو نقوم بها، ولكن بالأذن سمعنا عن الله وهذا أمر غيبى عنا، ومادام الأمر غيبيا عنا، فإن الله الذى خلقنى هو الذى يحدثنى كيف خلقت، أما أنا فإننى لا أعرف كيف خُلقت، ومن هنا فإننى لا يمكن أن أتحدث علميا عن العنصرين اللذين خلق منهما الإنسان وأيهما جاء أولاً، وإذا صمم أحد على أن يبحث فى هذا، يكون قد شغل نفسه بعلم لا ينفعه عن جهل لا يضره؛ لأنه لن يستطيع أن يدلل على ما يقول علميًا، وبالتجربة أنا أستطيع أن أمسك بالمادة وأدخلها المعمل ولكنى لا أستطيع أن أمسك بالروح وأدخلها إلى المعمل.

والعلم يجب أن يتم على مادة صماء يمكن أن تدخل المعمل الأصم، وتعطى حقائق صماء أليست هذه الحقيقة؟! والدليل على ذلك أن المعسكرات المتصارعة لا تختلف فى مذاهب العلم، ولكنها تختلف فى مذاهب الهوى والنظريات، لا توجد هناك كهرباء أمريكية وكهرباء روسية، ولا توجد كيمياء ألمانية ولا كيمياء إنجليزية، وكل علم الكيمياء فى أى دولة من دول العالم خاضع لما تعطيه التجربة الصماء التى لا هوى لها، وبهذا تكون النتيجة واحدة. سواء كان المعمل إنجليزيا أو أمريكيا، أو سوفيتيا، أو أى معمل من معامل الدنيا.

ولكن الخلاف يحدث عندما تتدخل مذاهب الهوى والنظريات، فإذا جئنا إلى مذاهب الهوى، هوى النفس، نجد أنها متناقضة، ليست مختلفة، ولكنها متناقضة هذا على النقيض من ذلك، رأسمالية وشيوعية، إيمان وإلحاد، وإنكار للديانات، لماذا؟ لأن هوى النفس دخل هنا فأفسد القضية العلمية وأضاع حقائقها.